الفصل الرابع

سياسة هارون الرشيد مع المغرب والأندلس

- **أولًا: سياسة الرشيد مع إمارات المغرب العربي.**
- **ثانيًا: سياسة الرشيد مع الأمويين في الأندلس.**

obeikandl.com

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

[الحجرات: 10].

obeikandl.com

أولًا: سياسة الرشيد مع إمارات المغرب العربي

ظل العالم الإسلامي يتمتع بالوحدة والقوة طوال فترة الخلافة الأموية، ولم تقم فيه أي حركات انفصال واضحة وقوية عن الخلافة، غير أنه بسقوط الدولة الأموية بدأ الضعف والتفكك ينخر في جسد الأمة الإسلامية، نتج عنه أن استقلت الكثير من الولايات عن الخلافة العباسية الناشئة، فقد انشغل العباسيون في بداية حكمهم بتوطيد ملكهم وتثبيت دعائم حكمهم في تلك البلاد المتنائية الأطراف من الصين شرقًا إلى بلاد المغرب غربًا، فاستغل الكثير من أصحاب المطامع تلك الظروف وأعلنوا استقلالهم كإمارات منفصلة عن الخلافة العباسية.

وهنا ملاحظتان:

الأولى: أن معظم هـذه الولايات كانت في بلاد المغرب العربي (المغرب- الجزائر - تونس).

وربما كان ذلك راجعًا إلى بعد بلاد المغرب عن السلطة المركزية في بغداد، أو لانشغال العباسيين بقمع الثورات المتلاحقة عليهم في شرق البلاد، أو لانشغال العباسيين في جهاد البيزنطيين ورد غاراتهم، وربما يكون لعدم تمكن الإسلام من قلوبهم وعدم استعدادهم أن يكونوا تحت سلطان العرب، وهناك عامل آخر هـو تذمر البربر في تلك البلاد من عسف الولاة وظلمهم. كما أن المتتبع لبعض تلك الولايات الانفصالية يجد أنها تنبع من أفكار مناوئة للخلافة، كالخوارج والشيعة.

الثانية: أنه مع قوة الخلافة واتساع رقعة الدولة وعلو هـيبتها في عهد هـارون الرشيد، إلا أن ذلك لم يحل دون ظهور تلك الحركات الانفصالية، والتي كان بعضها عن رضا من الرشيد نفسه، ربما لمصالح سياسية وعسكرية. وقد حاول

الرشيد أكثر من مرة أن يقضي على هـذه الحركات، كان آخرها أن أرسل قائده هـرثمة بن أعين إلى القيروان لضبط أحوالها، فوصلها في ربيع الآخر 179هـ، وقد استطاع بسياسته الحكيمة أن يعيد الاستقرار والأمن إلى إفريقية مرة أخرى، وجدد ما تخرب من المدن والموانيء والمنشآت، غير أن هـرثمة وجد كثرة الثوار والخلاف بإفريقية فاستعفى الرشيد من ولايتها فأعفاه، ورجع إلى العراق لسنتين ونصف من ولايته، وولي مكانه محمد بن مقاتل الكعبي، فقدم القيروان في رمضان سنة 181هـ، فأساء السيرة وظلم وعسف، فاضطرب أمره وشكاه الناس للرشيد الذي عزله وولى مكانه إبراهيم بن الأغلب سنة 184هـ[1].

وهكذا فإن الفتن والقلاقل استمرت في إفريقية ولم يستطع الرشيد إخمادها، وكان حصيلتها ظهور الدول المستقلة عن الخلافة العباسية، على النحو التالي[2]:

1 - جنوب المغرب الأقصى - دولة بني مدرار بسجلماسة (140 - 297هـ/ 757 - 909م)

قامت دولة بني مدرار في سجلماسة جنوب المغرب الأقصى سنة 140هـ، على يد عيسى بن يزيد المكناسي، وهم من الخوارج الصفرية، بسطت هـذه الدولة سلطانها على منطقة سلجماسة، وهادنوا العباسيين في القيروان. وانصرفوا إلى شؤونهم الداخلية وتجارتهم، حيث كانوا تجارًا بين الشمال والجنوب عبر الصحراء، وقد قضت عليهم الدولة العبيدية (الفاطمية) عام 297هـ/ 909 م.

2 - المغرب الأوسط - الدولة الرستمية (144 - 296هـ/ 761 - 908م)

وقد ساعد البعد المكاني لبلاد المغرب العربي على تكوينهم دولًا مستقلًا عن

(1) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، 4/ 249. ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 1/ 89 - 92.

(2) انظر تفاصيل الدول المستقلة وأحوال الخلافة العباسية معها في: محمود شاكر: التاريخ الإسلامي - الدولة العباسية، 1/ 172 - 178. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - العصر العباسي الأول، 2/ 167 - 197. عصام الدين الفقي: تاريخ المغرب والأندلس، ص118 - 162. بتصرف.

الخلافة العباسية، وكان أول هـذه الدول المستقلة الدولة الرستمية، فقد استطاع الخوارج الإباضية بإمامة عبد الرحمن بن رستم أن يكوِّنوا لهم دولة منفصلة عن الخلافة العباسية في المغرب الأوسط في مدينة تاهرت (غرب الجزائر) عام 161هـ، وأصبح عبد الرحمن بن رستم إمامًا لهذه الدولة، وقد هـادن ولاة القيروان. وبعد وفاته عام 171هـ، خلفه ابنه عبد الوهاب واستمر حكمه إلى ما بعد هـارون الرشيد، وقد هـادن ولاة إفريقية من قبل الرشيد أو من جاء بعدهم من الأغالبة.

3 – المغرب الأقصى – دولة الأدارسة (172 – 375هـ/ 788 – 985م)

ومن الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية في عهد الرشيد دولة الأدارسة في المغرب الأقصى (المغرب الآن)، والتي أسسها إدريس بن عبد الله، الذي نجا من معركة فخ عام 169هـ واتجه نحو مصر ومنها إلى المغرب، حيث استطاع أن يؤسس دولة الأدارسة سنة 172هـ، وبنى مدينة فاس واتخذها عاصمة له.

وقد استاء الرشيد من إقامة دولة الأدارسة، حيث اقتطع إدريس جزءًا من دولته، ورأى الرشيد أنه من الصعب إرسال جيش للقضاء على هـذه الدولة لبعد المسافة ولأن إدريس يتمتع بتأييد البربر، فما كان من الرشيد إلا أن تركه وأمره. وتوفي إدريس بعد حكم دام ثلاث سنوات سنة 175هـ/ 791م. واستمرت دولته يتعاقبها أولاده حتى سنة 375هـ.

إلا أن الكثير من المؤرخين ينسبون إلى هـارون الرشيد بأنه لجأ إلى التآمر للتخلص من خصمه إدريس، فأرسل له مَن سمَّه، غير أن المتتبع لروايات المؤرخين يتبين له التناقض والاختلاف في تفاصيل الحادثة من مؤرخ لآخر، مما يجعلنا نشكك في صحتها ومدى صدقها.

ويمكن أن نجمل أوجه ضعف هـذه الحادثة في النقاط التالية:

أ – أن كبار المؤرخين ممن نقلوا هـذه الحادثة، مثل الطبري وابن الأثير

والذهبي بدءوا سردها بقولهم (ويقال، وقيل إن الرشيد ..)، وهي كلمة للشك وعدم التأكد[1].

ب – ذكر ابن الأبار في الحلة السيراء أن يحيى بن خالد البرمكي هـو من أرسل من سمَّ إدريس، وليس الرشيد من بعث ودبَّر وقتل.

جـ – مدى اختلاف المؤرخين في تحديد شخصية من سمَّ إدريس، فمنهم من قال اسمه: الشماخ اليمامي مولى الخليفة المهدي، وقيل بل سليمان بن جرير الرقى كان سبب سمه، وكان إدريس به واثقًا فأتى من قبله، وحاول ابن خلدون أن يوفق بينهما، فقال: "دسَّ إليه الرشيد مولى من موالي المهدي اسمه سليمان بن حريز ويعرف بالشمَّاخ".

ج – واختلفوا في سبب سمِّ إدريس، فقيل إن سليمان بن جرير – وكان يقول بإمامة زيد بن علي بن الحسين (الشيعة الزيدية) – ناظر إدريس (الشيعة العلوية) يومًا في شيء فخالفه ثم دخل الحمام فلما خرج بعث إليه سليمان بسمكة مسمومة. وقيل السبب هـو تعاظم أمره عند الرشيد لتنازعه الملك في إفريقية.

د – بل واختلفوا في كيفية تسمم إدريس، فمنهم من قال وضع له السم في بطيخة، ومن قال في سمكة، ومن قال في أسنان مسمومة، ومن قال في دواء مسموم، وعليه فهم وإن اختلفوا في الشيء الذي سم به، فهم مجمعون على أنه مات مسمومًا[2].

وبناء على ما سبق، فالخليفة الرشيد نظر إلى أمر الأدارسة كأمر واقع فعلًا، ولا قِبَل له بمقاومته؛ لأن ذلك من شأنه أن يجر الخلافة إلى مزيد من الدماء واستهلاك

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 198 – 199. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 262. الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 285.

(2) ابن الأبار: الحلة السيراء، 1/ 52 – 53، 98 – 100. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، 4/ 17 – 18. أبو العباس الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، 1/ 213 – 215.

الجيوش وإضعاف الخلافة في مقاومة غارات البيزنطيين والخارجين في المشرق، فما كان منه إلا أن سلك طريق المسالمة، وجعل للأغالبة سلطانًا على إفريقية يحول بينه وبينهم.

4 – المغرب الأدنى – دولة الأغالبة (184 – 296هـ/ 800 – 909م)

في عام 184 هـ ولَّى هـارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب أفريقية (تونس الآن)، ومنذ أن تولى إبراهيم الإمارة بدأ يعمل على تأسيس دولة له ولأبنائه من بعده. عرف الرشيد رغبة إبراهيم بن الأغلب، ومع ذلك استبقاه في الإمارة بل ودعمه ما دام يعمل باسم العباسيين، وخاصة أن الرشيد كان مشغولًا بحرب البيزنطيين، وهجوم الخزر، ومشكلات المشرق، وفي الوقت نفسه يريد أن يحمي الأجزاء الغربية من الإمارات التي قامت في المغرب والأندلس من خوارج وأدارسة وأمويين، ولم يكن لدى الرشيد أسطول يحمي أقاليم البحر المتوسط فاكتفى بالإشراف على دولة إبراهيم بن الأغلب، ورأى ذلك خيرًا وأفضل من أن يخرجوا من إشرافه نهائيًّا كباقي الإمارات، ولم يلبث إبراهيم بن الأغلب أن بنى مدينة سماها العباسية بالقرب من القيروان منتصف سنة 184 هـ وجعلها قاعدة لإمارته.

obeikandl.com

ثانيًا: سياسة الرشيد مع الأمويين في الأندلس

من النقاط المهمة التي تتصل بالسياسة الخارجية لأمير المؤمنين هـارون الرشيد، والتي نحا فيها الكثير من المؤرخين منحًا غريبًا وتم تأويلها تأويلات كثيرة، تلك العلاقة بين الرشيد والأمويين في بلاد الأندلس. فقد كانت بلاد الأندلس غارقة في بحر من الخلافات القبلية عندما أعلن بنو العباس بدء دولتهم سنة 132هـ، وقابل العباسيون مشكلات جمة عند قيام دولتهم، فصرفهم ذلك عن إخضاع الأندلس لسلطانهم، وظلت الأندلس تعاني الاضطراب الداخلي بين المضرية القيسية واليمنية حتى استطاع عبد الرحمن الداخل أن يدخل الأندلس سنة 138هـ/ 756م، ويعيد فيها ملك بني أمية.

وقد حاول أبو جعفر المنصور أن يستميل عبد الرحمن الداخل ويضمه إليه، وقد أبدى أبو جعفر المنصور إعجابه بعبد الرحمن الداخل، الذي استطاع أن يستعيد ملك آبائه في تلك البلاد البعيدة بعد أن كان طريدًا شريدًا، فلقبه بصقر قريش، وفي المقابل كانت الدعوة العباسية قد انتهت إلى الأندلس حين مقدم عبد الرحمن الداخل، وذاعت في منابرها، ودعى في الخطبة لبني العباس في كثير من النواحي، ثم دعى لهم في قرطبة ذاتها، ودعى عبد الرحمن الداخل نفسه لأبى جعفر المنصور مدى عشرة أشهر[1]، وكان ذلك رغم غرابته وتناقضه، عملاً من أعمال السياسة،

(1) اختلف المؤرخون في المدة التي قضاها الأمير عبد الرحمن الداخل وهو يدعو لأبي جعفر المنصور، فابن حزم أشار إلى أنه ظل يدعو له أعوامًا، وأما ابن الأثير فقد حددها بعشرة أشهر فقط، وتابعه على ذلك النويري والمقري، في حين أن ابن الأبار ذكر أن المدة دون السنة، وأما ابن الكردبوس فقد ذكر أن جميع أمراء بني أمية كانوا يخطبون للعباسيين، وتابعه على ذلك ابن أبي دينار، وأما صاحب ذكر بلاد الأندلس فقد ذكر أن الدعوة استمرت لأبي جعفر المنصور مدة سنتين، في حين أن ابن خلدون لم يحدد المدة. انظر: سالم عبد الله الخلف: نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، 1/ 190.

إلا أن الداخل قطع الخطبة، وبعدها أصبح الدعاء للأمير الأموي وحده[1]، وبذلك استقلت الأندلس نهائيًا عن الخلافة العباسية.

ولما لم يفلح الخليفة المنصور في ضم الأندلس فكر أن يخضع الداخل لسلطانه بالقوة، ولكنه عجز لبعد الشقة ولانشغال جيوش الخلافة المشكلات الداخلية، وهي نفس الأسباب التي دعت الخليفة المهدي لكي يغض طرفه عن ضم الأندلس.

بل ذهب بعض المؤرخين إلى اتهام الخليفة المهدي بمشاركته في مؤامرة دولية واسعة النطاق مع شارلمان ملك الفرنجة والمتآمرين في الأندلس في سبيل القضاء على عبد الرحمن الداخل واسترداد الأندلس. ولكن هـذا الرأي بحاجة إلى أدلة قوية، وهو عرضة للتشكيك، ولا يمكن الأخذ به بسهولة. فلم يكن المتآمرون يعملون إلا في سبيل مصالحهم الخاصة، فشارلمان تحدوه أطماع التوسع وضم البلاد، وبقية الزعماء الخونة الذين ارتضوا التعامل معه، لم يكن يدفعهم إلا شهوة الحكم والسيطرة، ولو كان ذلك خلاف مصالح الأمة والمباديء. أما ما يقال عن اتصال أحد المتمردين، وهو عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلي، بالخليفة المهدي، فلا يقوم عليه دليل قوي في المصادر العربية، ربما كان هـذا قد عمل تحت ستار الخلافة العباسية ليحمل الناس على الالتفاف حوله[2].

ولما ولي هـارون الرشيد أمر الخلافة كان قد استقر الأمويون في بلاد الأندلس، ولم يعد للرشيد فيها مطمع، وكان يعاصره من الأمويين في الأندلس عبد الرحمن الداخل (138هـ - 172هـ) وولده هـشام الرضا (172هـ - 180هـ) وولده الحكم الربضي (180هـ - 206هـ).

(1) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، 1/ 197. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - الخلافة العباسية، 3/ 249.

(2) خليل إبراهيم السامرائي - عبد الواحد ذنون طه - ناطق صالح مصلوب: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص129.

ولم تذكر المصادر العربية أي محاولات أو تفكير من قِبَل هـارون الرشيد لضم الأندلس، سوى ما كان من المصادر اللاتينية التي تناولت علاقة الرشيد بشارلمان، وأنه قد تمت مؤامرة بينهما، لإضعاف الأمويين في الأندلس والإمبراطورية البيزنطية في القسطنطينية، وقد أثبتنا ضعفها كما سبق[1]، فقد اعتمد الرشيد على سياسة الاعتراف بالأمر الواقع، وعدم الخوض في مغامرات غير مأمونة العواقب عليه وعلى دولته المترامية الأطراف.

نلخص ما سبق أنه لا يمكن أن يكون للعباسيين أية علاقة بما يحدث في الأندلس من اضطرابات وفتن ومؤامرات على عبد الرحمن الداخل؛ لأنهم كانوا مشغولين بمشاكلهم السياسية الخاصة بهم التي هـي أوجب من الانصراف إلى التفكير في الأندلس البعيدة.

(1) انظر الباب الثاني – الفصل الثاني الخاص بطبيعة العلاقة بين هارون الرشيد وشارلمان، ص201 – 206.

obeikandl.com

أيـن الرشيد وقد طـاف الغمـــام بـه ... فحيـــن جاوز بغـدادًا تحـــداه؟
ملْكٌ كمُلك بنـي التاميز ما غَرَبت ... شمـسٌ عليه، ولا برقٌ تخطاه
ماضٍ تعـيش علـى أنقاضـه أمَـــمٌ ... وتستمدُّ القوى من وحي ذكراه

الشاعر: محمود غنيم

obeikandl.com